

١٠



ريادة با مطرف في دراسة

تراث حضرموت الملاحى البحري

أ / محمد علوي با هارون



# ريادة بامطرف في دراسة تراث حضرموت الملاحي البحري

إعداد

محمد علوي عبدالرحمن باهارون

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

تحظى حضرموت بتراث اجتماعي ملاحى وشعبى عريق تنقله الأجيال عن الأجداد عبر التلقي الشفهي يتحدثون عنه وينثرونه على مسامعهم بفخر واعتزاز كلما جد الحديث عن ماضيهم الحافل بالأمجاد والبطولات إلى أن وصل إلينا مفردا في صدور أولئك الأجيال فمادون منه بقي وما لم يدون اندثر بموت أصحابه وكم فات ما فات من تراثنا لأنه لم تدونه الأقلام.

ويعتبر الأستاذ المرحوم محمد بن عبدالقادر بن عمر بامطرف (1915-1988م) السياسي والصحافي والأديب والمؤرخ الحضرمي الغني عن التعريف، من الأفراد القلائل الذين كرسوا اهتمامهم بذلك التراث الحضاري العريق مفتشا عنه في بطون الوثائق والمخطوطات ومتلقيا عن الشيوخ الحافظين له سواء كان تاريخيا أو شعبيا أو شعريا أو بحريا، وقد قام بإبراز هفي العديد من الدراسات القيمة والمؤتمرات العلمية ومنها المؤتمر الأول للأدب والتراث الشعبي الذي انعقد في محافظة شبوة عام 1974م، ويعد كتابه (معجم الأمثال والاصطلاحات العامة المتداولة في حضرموت) إضافة فريدة في خدمة تراث حضرموت الشعبي، وكذلك موسوعته الأدبية (الشعر الشعبي الحضرمي فن وصناعة) المكونة من خمسة أجزاء.

وكان رحمه الله كما حدثنا عنه تلاميذه - ومنهم أستاذنا الملاحي رحمه الله - بأنه موسوعة علمية ناطقة حافلة بالمعارف ومكتظة بالمعلومات التاريخية والأدبية والسياسية والدينية وغيرها، إذا تحدث في موضوع يخال لك بأنه من صميم تخصصه، ومن عجيب الصدف وأنا أقبل بعض مؤلفاته القيمة لكتابة هذه الورقة البحثية وفتت على أبيات كنت قد كتبتها في مؤخره كتابه لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى قلت فيها:

نزه بطرفك في أبحاث بامطرف	تجده من كل بستان لنا يقطف
مؤرخ وأديب كان ديدنه	بحث العلوم وفي تدوينها يشغف
بل كان موسوعة علمية وبها	تجد فوائد لقرائه بها يتحف

ولعل دوره في دراسة التراث الملاحي البحري لحضرموت يعد دورا رائدا لم ينافسه عليه أحد فهو أول باحث حضرمي يهتم بذلك الموروث العظيم من مرشحات بحرية شعرية ونثرية وعادات وتقاليد البحارة، وفتح



الباب على مصراعيه أمام الباحثين الحضارمة المعاصرين وشجعهم على دراسة ذلك الموروث، وكذلك الباحثين الغربيين الأكاديميين الذين أثارتهم دراسات بامطرف الملاحية فاتجهوا إلى حضرموت باحثين ومنقبين عن ذلك التراث المجيد الذي بدأ كثير من أبناء حضرموت يتناسونه بانقراض عصر الملاحة البحرية على متن السفن الشراعية الخشبية التي اشتهرت بها حضرموت منذ عصور قديمة إلى ما قبل الإسلام حتى وصف أبنائها بأنهم سادة البحار الشرقية والمحيط الهندي ووصفت بعض موانئها (الحامي) بعرين أسود البحر، ونازعهم على تلك السيادة البرتغاليين في القرن العاشر الهجري والهولنديين في القرن الحادي عشر والأوروبيين في القرن الثالث عشر كما هو معروف في كتب التاريخ، وتوسع في الحديث عنه الأستاذ بامطرف نفسه في كتابه القيم (الشهداء السبعة) ضد الغزو البرتغالي على ميناء الشحر خصوصاً وحضرموت على وجه العموم عام 929هـ الموافق 1522م.

ونظراً لسعة إطلاع الأستاذ بامطرف وإتقانه للغة الانجليزية كتابةً وتحدثاً، ساعدته في الإطلاع على العديد من الدراسات والأبحاث العلمية والأدبية العربية والانجليزية وخصوصاً تلك الكتب التي تحدثت عن الملاحة في المحيط الهندي ودور الحضارمة فيها إلا أنها جاءت ناقصة أحياناً ومشوهة في بعض الأحيان كما يحدثنا عنها بقوله: من المسلم به أن الملاحة البحرية لجنوب بلاد العرب والخليج العربي والمناطق الأخرى المجاورة كانت موضع اهتمام الباحثين منذ زمن بعيد. وبما أن معظم أولئك الباحثين كانوا أجانب بالنسبة إلى الجنوب اليمني فإن جانباً من بحوثهم، رغم حرصهم على الدقة، أتى وقد اعتوره التشويه في المسميات والدلالة حتى ليظن المطلع على كتبهم أنهم لفرط نهمهم للتدوين، يدنون كل ما صل إلى أيديهم دون تمحيص. ومن تلك الأبحاث الجليلة التي اطلعنا عليها ما يلي:

1. بحث عن المستعمرات البريطانية بعد ألفه ف.ن هنتر عام 1877م، أورد فيه بياناً بالسفن الشراعية التي كانت تتردد على عدن وذكر شيئاً عن أشكالها وعن الجهات التي تصنع فيها.
2. كتاب الملاحة الهندية، ألفه د.موكرجي عام 1912م، ذكر فيه المصطلحات الملاحية المتداولة في المحيط الهندي ومنه نعلم مصادر بعض الكلمات التي نستعملها نحن الحضارم في تسمية أجزاء وآلات وحركات سفننا.
3. كتاب أسماء ما في السفينة الشراعية ألفه جاسم الدجيلي العراقي عام 1913م.
4. كتاب الأيام الأخيرة للدقل والشرع، ألفه ألان مور عام 1925م، وهو كتاب نعتبره إشراقاً داخلياً اجتاز به المؤلف حجب الغيب لما سوف تؤول إليه حال السفينة الشراعية أمام السفينة البخارية، وذكر فيه بعض أسماء السفن وأوصاف جانب من آلاتها.
5. كتاب أصول الكلمات الشرقية المستعملة في اللغة السواحلية، ألفه كُرُوم عام 1940م، ونفهم من هذا الكتاب أنها هالي شرق إفريقيا اقتبسوا عن الملاحين الحضارم كل مصطلحات صناعتهم الملاحية البحرية.
6. السفن العربية في مشرق البلاد العربية، ألفه باون، وأورد فيه أسماء بعض أنواع السفن الشراعية، وقد جاءت بعض مسمياته مشوهة لأسماء بعض أنواع سفن معروفة في الخليج العربي والساحل الحضرمي.



7. المنظومة البحرية في وصف أجزاء وآلات السفينة الشراعية للملاح علي بن أبي بكر بامعبيد، وضعها عام 1958م.

8. منظومة الملاح العماني مسلّم بن راشد الصوري عن معالم شواطئ البحر الأحمر والبحر العربي ألفها عام 1853م بعد عودته من الأراضي المقدسة وأداء فريضة الحج في رحلته البحرية من جدة إلى صور بسلطنة عمان.<sup>(1)</sup>

هكذا اكتسب الأستاذ بامطرف في مجال الملاحة البحرية خبرة تفوق خبرة العديد من الملاحين في كثير من الأحيان، بالإضافة إلى إطلاعه على مؤلفات الحكم سليمان بن أحمد المهري في مكتبة السوربون بباريس، وهو من أبناء الشحر وصاحب المؤلفات العديدة في الملاحة البحرية ومؤلفاته مشهورة وقد عاش في القرنين التاسع والعاشر الهجريين وكان معاصراً للملاح العماني الشهير أحمد بن ماجد،<sup>(2)</sup> وغيرها من المنظومات والمرشادات البحرية الحضرية التي كانت تزخر بها خزائن ربانة حضرموت.

### بامطرف ورحلته البحثية إلى ميناء الحامي:

إن أول اتجاه للأستاذ بامطرف في البحث عن تراث حضرموت الملاحي البحري هو إلى ميناء الحامي الواقع شرقي ميناء الشحر التاريخي، ذلك الميناء الذي قال عنه بأنه الرافد الأساسي لميناء الشحر بالبحارة المغامرين والربانة الأكفاء، وقد أفاض في الحديث عنه في العديد من دراساته القيمة ومنها قوله في الشهداء السبعة: "لقد عاش في الحامي خيرة الملاحين البحريين اليمنيين الذين كانوا عماد الملاحة البحرية الجنوبية عبر التاريخ، واحتفظت الحامي دون بقية الموانئ اليمنية الجنوبية بمزية إنجاب مشاهير الملاحين البحريين، وقد لعب أهل الحامي دوراً رائعاً في ملاحة اليمن الجنوبية منذ فجر التاريخ وكانوا يجوبون البحار بسفنهم الشراعية من خليج البنغال إلى خليج السويس ومن مشارف ناتال بجنوب إفريقيا إلى ميناء البصرة وبذلك أبقوا الخط الملاحي الشهير المعروف بخط مسقط - الشحر - المخا مفتوحاً للتجارة بين جنوب بلاد العرب والعالم الخارجي".<sup>(3)</sup>

والسبب الرئيسي الذي حث الأستاذ بامطرف على القيام بتلك الجولات البحثية المتكررة إلى ميناء الحامي هي تلك الرحلة التي أبحر بها من ميناء المكلا إلى ميناء عدن عام 1942م في بعض مهامه السياسية حيث يعمل حينذاك موظفاً في إدارة الاستشارة البريطانية ويرافق البعثات الطبية مترجماً إلى جزيرة سقطرى وغيرها، وقد أقلته سفينة شراعية كان ربانها النوخدة شيخ بن محمد باعباد (ت 1979م) كما يحدثنا عنها بالقول: "في شهر ديسمبر سنة 1942م سافرت من المكلا إلى عدن على سفينة شراعية ربانها الملاح شيخ بن محمد باعباد (من أبناء الحامي) وفي صباح أحد الأيام كانت سفينتنا على مقربة من قرية شقرة وكنا نشاهد جبل الفضلي ممتداً في مؤخرة السفينة، ثم شاهدت الملاح باعباد يتبادل الرأي مع صرنج (نائب الناخوذة) السفينة وبعد ذلك ألقى تعليمات لم أفهم معناها إلى السكوني ثم وضع يده على كتف الصرنج وقال بصوت مسموع:

والعقرب الآن      مجراك منها لسيلان

تشوف شمسان      بندر عدن سلطنيه



فسألته عن هذه الرموز المنظومة وعن الناظم، فشرحها لي وحدثني عن الملاح باطايع ولم أكن قد سمعت به من قبل، ومنذ ذلك اليوم أصبح الملاح باطايع موضع اهتمامي". (4)

جزى الله الصدف خير الجزاء فلوم لم يسافر الباحث بامطرف مع الربان باعباد في تلك الرحلة لما كنا عرفنا شيئا عن الملاح باطايع وبقية الملاحين الحضارمة الذي قام بدراسة حياتهم بعد ذلك، سوى تلك المقاطع الشعرية المبتورة التي تردد على السن بعض كبار السن من ابناء الحامي وغيرهم من البحارة الحضارمة وينسبونهم إلى النوخة باطايع فمن هو ياترى باطايع المذكور؟ وفي أي عام ولدومات؟ وأين تعلم وكيف عاش؟ وما هي مؤلفاته وأثاره العلمية؟، كل تلك الأسئلة سنقف حائرين عندها.

بعد عودة الأستاذ بامطرف من مهمته تلك إلى المكلا اتصل بزميله في العمل الحكومي في السلطنة القعيطية المرحوم الشيخ بدر بن أحمد الكسادي وأخبره بما جرى له وسمعه من النوخة باعباد أثناء سفرهم إلى عدن فزاد من حفيظته ورغبه في دراسة تلك المنظومة التي وصف فيها الطريق البحري من مسقط إلى المخا وأخبره أن له منظومة أخرى في وصف الطرق من سيحوت إلى جزيرة زنجبار، وقد جهز له الرحلة إلى ميناء الحامي حيث نزل ضيفا في بيته والتقى بربابنتها المتقاعدين وفي مقدمتهم الربان المعلم محمد بن عبدالله باعباد (ت1981م) والربان عمر بن حسين عيديد (ت1970م) والربان عمر عبدالله الكسادي (ت1991م) والربان سالم بن سالمين كعيتي بالإضافة إلى الربان شيخ باعباد الذي التقى به في السفينة والذي كان سببا في زيارته تلك.

وقد قام الأستاذ بامطرف بإلقاء العديد من الأسئلة عليهم وهم يجيبونه وقد دون تلك اللقاءات البحثية في مذكراته اليومية، كما اطلع على مدوناتهم البحرية والشخصية وسجل عنهم منظومتي الملاح سعيد بن سالم باطايع الأولى والثانية وقام بمقارنة النصوص ومناقشتها مع أولئك الربابنة وشرحوا له مضامينها واستخرج منها نصا موحدًا متفق عليه بين روايات أولئك الملاحين كما يحدثنا عن ذلك بقوله:

"وفي عام 1965م ألح علي صديق عزيز [ بدر الكسادي ] أن أعد دراسة عن الملاح باطايع ومنظومتيه الملاحيتين، غير أن أعمالاً تاريخية أخرى حالت دون تحقيق مطلبه وفوق ذلك فإنني لم أكن في ذلك الحين قد أكملت البحث عن متن المنظومتين ومضاهات نصوصها بالروايات المختلفة التي كانتا ترويان بها للخروج من كل ذلك بنص موحد للمنظومتين متفق عليه بين الملاحين اليمنيين المعاصرين الثقاة. وبمساعدة عدد من ملاحي قرية الحاميتمكنت من جمع نصوص المنظومتين وشرحهما في هذه الدراسة التي أسميتها، بناء على اقتراح أحد شيوخ الملاحة البحرية في الحامي، (الرفيق النافع على دروب منظومتي الملاح باطايع)" (5). وقد قام بشرح تلك المنظومتين ومقاطعها الرباعية في تلك الدراسة القيمة التي اقترح عليه كما يبدو الربان محمد بن عبدالله باعباد على تسميتها بالرفيق النافع ويقول عنها أنها تسمية موفقة لسببين أولاً: أنها تسمية أتت ملخصة لمحتويات الكتاب ودالة عليها، وثانياً: لأن أريج الماضي العطر ينعكس في الأسلوب القديم لهذه التسمية المسجوعة المحببة إلى أنفس الكثيرين.

ويعترف بالفضل لأهله في تلك الدراسة بالقول: إن الفضل كل الفضل يعود لتعاون أبناء الحامي معي لدى إعدادي هذه الدراسة عن جانب مغمور من تراثنا اليمني الذي نعتز به ، وكان قد ظل أكثر من قرن ونصف



القرن حبيباً في الصدور يتناقله الخلفن السلف بالتلقي الشفهي العابر وليس عن طريق التدوين الثابت. ومن قبيل الاعتراف بالفضل لذويه وهم في هذه الحالة أهالي قرية الحامي قاطبة، ألقت قبل هذه الدراسة رسالة أسميتها (شخصيات لاتنسى) تعرضت فيها بشيء من التوسع لحياة الملاح باطايح وأوردت فيها تراجم لثلاثة ملاحين من أبناء الحامي، كانت لهم شهرة واسعة في الملاحة في جنوبنا اليمني وهم الملاح عوض بن أحمد بن عروة (1262-1333هـ) والملاح محمد عوض عديد (1282-1358هـ) والملاح عمر باصالح (1280-1361هـ) ، وكان قد تدرب على أيديهم في فنون الملاحة البحرية العشرات من ربابنة الديس والحامي والشحر والمكلا منهم على سبيل المثال الملاح المعاصر محمد بن عبدالله باعباد (85 عاماً) وهو من أبناء الحامي. (6)

ولعل من أبرز الملاحين الحضارمة الذين تلقوا تدريبهم العملي والنظري على يد ربابنة الحاميعبود محمد باخبازي وسعيد عمر حوري وعبدالرحيم عمر حوري من أبناء الديس، وعبدالله محمد مدي ومحسن عبدالحبيب بوبك من أبناء الشحر وغيرهم. (7)

وتعتبر دراسة الأستاذ بامطرف (شخصيات لاتنسى) من الدراسات العلمية الرائدة في خدمة تراث حضرموت فقد اشتملت على دراسة الحياة الاجتماعية العلمية والعملية لجماعة من الربابنة والنواخذ الحضارمة في موانئ الشحر والمكلا والحامي، وهي اليوم في حكم المفقود حيث أخذت من مكتبته في أيام الحكم الشمولي مع مجموعة من مؤلفاته ومخطوطاته في خطة مدبرة للقضاء على تراث حضرموت ولكن ويمكرون ويمكر الله، وقد نقل عنها المرحوم بدر الكسادي في كتابه الأبطال وقال عنها: ومنها كتابه شخصيات لا تنسى تناول فيه عدداً من قباطنة الحامي الذين لهم شهرة في فنون الملاحة البحرية، وأعطاهم ما يستحقونه من ثناء وتقدير لخبراتهم البحرية في فنون الملاحة، وتعد كتابات الأستاذ بامطرف وثائق لها أهميتها التاريخية ولنا أن نفخر بها وبدلالاتها الواضحة ... (8)

### محتويات الرفيق النافع:

يحتوي كتاب الرفيق النافع على دروب منظومتي الملاح باطايح، على إهداء ومقدمة والإرشادات الملاحية من سيحوت إلى جزيرة زنجبار، والإرشادات الملاحية من مسقط إلى بندر المخاء وخاتمة ويشتمل على رسم للبوصلة وخرائط توضع الرحلات البحرية واتجاه هبوب الرياح وبعض أجزاء السفينة.

وقد جعل الإهداء إلى قرية الحامي وأهلها. أما المقدمة فقد أفاد فيها وأجاد متحدثاً عن البوصلة البحرية ومن أول من اكتشفها واستعملها بقوله: اختلف المؤرخون حول من كان أول من اخترع البوصلة التي تسير على هديها السفن في البحر ومن بين المجادلات التاريخية المطولة في هذا الموضوع، برزت أسماء ثلاث أمم ينسب إلى كل منها اختراع البوصلة .. وتلك الأمم الثلاث هي الصينيون والعرب واليونان.

وتحدث عن تلك المجادلات وخرج منها بنتيجة وهي قوله: وليس من السهل الإدعاء بأن أمة من الأمم كانت الأولى في استعمال البوصلة ، أو القول أن البوصلة استعملت صدفة في أكثر من تاريخ واحد دون أن يسند هذا الإدعاء دليل .



ثم تحدث عن معرفة العرب الفلكية والاستهداء بالنجوم في الصحراء ثم في البحر قبل اختراع البوصلة وتوصل انه يصح الاستدلال بأن الملاحين البحريين العرب، وخاصة في جنوب وشرق الجزيرة العربية قد تبادلوا علم البوصلة البحرية مع الفرس والهنود .. ولا يعزب عن البال أن كثيرا من الأسماء والاصطلاحات المستعملة عند الملاحين العرب والهنود والفرس ذات اشتقاق عربي أو هندي أو فارسي أو يوناني.

وتحدث فيها عن عرب جنوب الجزيرة العربية ودورهم في تطوير البوصلة وجعلوها مائة وثمانية وعشرين اتجاها بدلا من الاتجاهات الثلاثمائة والستين المعروفة قديما بالدرجات عند بطليموس والتي عمل ويعمل بها الملاحون الغربيون. وهذه الاتجاهات على النحو التالي :

62 اتجاها في شرق الديرة وأسموها مطالع.

62 اتجاها في غرب الديرة وأسموها مغايب.

4 اتجاهات تمثل الشمال والجنوب والشرق والغرب وأسموها أصولا ومفردها أصل.

وعلى هذا الأساس وضعوا للمطلع (الشرق) 15 نجما هي ، حسب وضعها في الديرة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي ، الفرقد والنعش والناقاة والعيوق والواقع والسمك والثريا والمطلع (أي اتجاه الشرق الأصل) والجوزاء والتير والإكليل والعقرب والحمارين وسهيل والسندبار. وفي المغيب (الغرب) وضعوا نفس هذه النجوم وبينها وضعوا طبعاً نجم المغيب (أي اتجاه الغرب الأصل) بعد أن حذفوا نجم المطلع.

فأصبح عدد النجوم ثلاثين نجما وأضافوا نجمين هما نجم الجاه (الشمال الأصل) ونجم القطب (الجنوب الأصل) وبهذا أصبح عدد النجوم جميعها التي تتكون منها الديرة اثنين وثلاثين نجما أو بمعنى آخر 32 اتجاها. ثم جعلوا المسافة بين كل نجم والآخر خنا فأصبح لهم في الديرة 32 خنا ، وقسموا كل خن من هذه الخنون الاثنين والثلاثين إلى ثلاثة أقسام ( أي ربع خن ونصف خن وثلاثة أرباع الخن ) فأصبح عدد الاتجاهات في جميع الخنون ستة وتسعين اتجاها. فإذا أضفنا اتجاهات الخنون الستة والتسعين إلى اتجاهات النجوم الاثنين والثلاثين كان مجموع الاتجاهات التي تتكون منها الديرة مائة وثمانية وعشرين اتجاها.

ثم تحدث عن الملاحين العرب أمثال محمد بن شعبان واحمد بن ماجد وسليمان المهري واهتمام المستشرقين بعلومهم ومصنفاتهم الملاحية القيمة. مشيرا إلى ما تعرض له الملاحون العرب من هجمات انتقامية من قبل البرتغاليين والهولنديين والانجليز في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، من خطف وغرق وإحراق إلا أنهم لم يتركوا المسرح البحري رغم كل العقبات التي كانت تعترض طريقهم لأن الملاحة البحرية كانت عماد تجارتهم ورزقهم ووسيلة اتصالهم بالعالم الخارجي، لذلك صمموا على البقاء في ساحة المعركة يتلقون الهزائم ويلحقونها بأعدائهم إلى أن تلاشت القرصنة في أعالي البحار واستقرت على اليايسة في شكل حكومات منظمة منها على سبيل المثال شركة الهند الشرقية التجارية البريطانية.

وتحدث عن الملاح باطايح باختصار شديد قائلا: وفي مستهل عام 1180هـ - 1766م ولد بقرية الحامي الملاح سعيد بن سالم باطايح. وكان شأنه شأن بقية فتيان تلك القرية الشهيرة بملاحيتها الممتازين. فقد التحق



بالخدمة البحرية وهو في التاسعة وما أن بلغ العشرين من عمره حتى كان قد أظهر اقتداراً عظيماً في علم الملاحة البحرية وبعدها أصبح فريد عصره بين الملاحين اليمنيين الجنوبيين.

ثم قال منوهاً بالمكانة الملاحية العلمية للهامي وأهلها: إن تكرار اسم قرية الهامي في هذه الدراسة ونسبة أكثرية مشاهير الملاحين في جنوبنا اليمني إلى تلك القرية العريقة أمر يثير التساؤل ... وهو كذلك مثير لا للتساؤل فحسب ولكنه أيضاً مثير للإعجاب والإكبار، وأحال الإجابة عن ذلك إلى كتابه الشهداء السبعة الذي يقول فيهِ صفحة 40: كانت قرية الهامي - على صغرها - مثار اهتمام رجال البحر من الحضارمة وغيرهم ومثار نقاشهم؛ لأن أهالي هذه القرية على قلتهم كانوا إلى منتصف القرن الهجري الحالي (الرابع عشر) يملكون أسطولا تجارياً من السفن الشراعية قدر بأكثر من خمسين سفينة عابرات المحيطات، ويعتبر بحارة الهامي وملاحوها في طليعة الملاحين اليمنيين ممارسة وانضباطاً وتمتعاً باللياقة البحرية .. ولعب أهل الهامي دوراً رائعاً في ملاحية اليمن الجنوبية منذ فجر التاريخ فهم الذين كانوا يسيرون الخط التجاري القديم بين الشرق والهند والخليج وشرقي وجنوبي إفريقيا".

وقد نوه بخبرة الربان العبقري عوض أحمد بن عروة الذي كان مثلاً للبحار الماهر الموهوب بما يبيديه من تصرفات غريبة وهو أعمى البصر. وكان ملاحاً متميزاً بين معاصريه في جنوب اليمن بخواص تنم عن العبقرية.

ثم تعرض فيها إلى ما أورده الملاح باطايح من عادات وتقاليد بحرية في منظومتيه مثل تسمية بعض الموانئ بأسماء الأولياء الثاوين بها، وعادة الفولة وغيرها قائلًا: والطريف في منظومتي باطايح أنهما تدلّنا على أساطير البحارة العجيبة وتقاليدهم وعاداتهم وبعض هذه التقاليد باق معنا في اليمن الجنوبية إلى اليوم وهي تعطي الحديث عن الملاحية مذاقاً حضارياً يتشابه مع مذاق ما قرأناه ونقرأه بين حين وآخر عن أساطير وتقاليد بحارة الأمم الأخرى ذات الصلات العريقة بالملاحية البحرية، حتى ليخال المرء إن للبحارة في كافة بقاع الأرض معتقداً موحداً ذا اتجاهات شعورية واحدة، والحقيقة التي تختفي خلف هذه التقاليد هي أن أهوال البحر أوجدت لدى البحارة على كر الدهور ترسبات فكرية منها أن المارد البحري الهائل لا يمنح السلامة والأمان للذين يجازفون بأرواحهم في عباب أمواجه إلا بأداء مختلف الطقوس له وتقديم القرابين المختلفة بين يديه.

مشيراً إلى أن الإرشادات الخالدة التي تنطوي عليها المنظومتان هي المجاري البحرية في أعالي البحار، والجبال والتضاريس الأرضية والخلجان والشعاب الخطيرة المغمورة بالماء والضحولة في المواطن البحرية الساحلية، ومناطق التيارات البحرية والرياح، هذه المعالم الملاحية الهامة نجدها اليوم كما وجدها الملاح باطايح منذ قرنين من الزمان وكما وجدها واكتوى بنارها الملاحون الأقدمون منذ آلاف السنين. وأنها لم يؤثر على قيمتهما الملاحية استبدال السفن الشراعية الآلة بالشرع، كما لم يؤثر عليهما اختلاف أو زوال بعض المعالم البرية كالقلاع والأشجار والمنازل التي كانت قائمة على المسالك البرية على عهد الملاح باطايح وكان - رحمه الله - قد أشار إلى مثل تلك المعالم لفائدة الملاحين في منظومتيه.

واختتمها بقوله: إنه لمن الحق القول أنه ما كان لأي اكتشاف حضاري أن يتحقق في أي مجال من مجالات التقدم في هذه الدنيا لولا هذه الخصال الإنسانية، ولكنه من الحق أيضاً القول بأن عالم اليوم يضع تلك



الخصال الذاتية وبجانبها الأسباب الموضوعية للعلم الحديث المتطور في كفة واحدة على قدم المساواة. لكننا بإمعان النظر في صعوبات أمس وتسهيلات اليوم نكبر في سلفنا همهم العالية، ونرى أن أقل عمل من أعمال البر بهم لهو أن نعلم شيئاً عنهم وأن نحافظ على ما خلفوه لنا من تراث، وأن نستمد منهم القوة المعنوية في العمل الدؤوب والابتسام في وجه المكاره بغية الثبات أمام تلك المكاره ثم التغلب عليها.

ثم شرح منظومة الملاح باطايح الأولى في الإرشادات الملاحية من سيحوت إلى زنجبار والتي نظمها عام 1217هـ (1802م) مستعرضاً ما فيها من المعلومات التجارية والجوانب اللغوية، وهي مكونة من 29 رباعية جاء فيها:

يا رب سالك تسهل ما عسر	على عبيدك وسط بحر وبر
بجاه طه النبي خير البشر	رحيم قدوس سالك يا سلام
وبعد يا صاح أسمع ما نقول	لا غابت الشمس صلوا عا لرسول
نقول يا الله بتوبة والقبول	اغفر وسامح وسهل في الكلام
سيحوت منها شمرنا بالعشي	من بعد ما قضينا كل شي
والقبض في مطلع العقرب وفي	من بعد ليلة نوفي كل زام

ثم شرح المنظومة الثانية في الإرشادات الملاحية من مسقط إلى المخاء المشتملة على 66 رباعية والتي نظمها عام 1220هـ (1805م) مبيناً ما فيها من عادات وتقاليد بحرية مثل هدية السكوني ووسية الموافي وهدية مقدم سيحوت، وتحية الموانئ بلعبة الكاسر البحرية، وما تضمنته من أمثال شعبية. ووقائع ومعلومات تاريخية، وأسماء تاريخية لموانئ حضرموت مثل سوق الاحقاف للشحر وظهار للحامي يقول فيها:

يا الله يا رب	أدعوك يا خير مطلب
تعطي وتوهب	سالك بخير البرية
رحيم قدوس	اكشف لنا الهم والبؤس
في هذه الروس	نعبر بإخلاص نية
من تحت صيرة	الفلك قد جد سيره
ربه خبيره	ينظر بعين العنية

وختم ذلك البحث القيم بقوله: "إن الطريقين البحريين اللذين أرشدنا عبرهما الملاح باطايح في سفرتنا الأولى من سيحوت إلى جزيرة زنجبار وفي سفرتنا من خليج عمان إلى المخاء هما الطريقان اللذان سلكهما أجدادنا اليمنيون مذ عرفوا الاهتداء بالمعالم البرية والاتجاهات البوصلية في مغامراتهم البحرية. وإن أساليب الملاحة التي مرت بنا في رباعيات باطايح لهي نفس الأساليب القديمة التي سار عليها أسلافنا في أسفارهم البحرية. والفضل يعود للملاح باطايح في تسجيل تلك الإرشادات.. لقد أدرك الملاح باطايح، كما يبدو، أن إرشادات ابن ماجد وكذا إرشادات الحكم سليمان المهري اليمني تسجيلات بالغة التعقيد بالنسبة لثقافة النواخذ والربابنة والمعالمة الاعتياديين، وأن هؤلاء محتاجون إلى إرشادات مبسطة العبارة مقربة إلى الفهم مسهلة للحفظ والتطبيق، فوضع منظومتيه فجاءتا وأفيتين بالهدف الذي قصد إليه. وإنه لمن تحصيل الحاصل القول أن قيمة المنظومتين بالنسبة للدراسة البحرية الحديثة قيمة أكاديمية، ولكنها في مجال حفظ التراث اليمني شيء يضيف إلى المكتبة العربية لوناً جديداً من الحضارة اليمنية لم يسبق وإن اهتم به أحد غير الملاح باطايح وحده رحمه الله".



إن شرح الأستاذ بامطرف لمنظومتي باطايح يعد شرحاً ممتازاً جمع بين القديم والحديث وبين المعرفة والخبرة، يخال للقارئ عند قراءته بأن مؤلفه ربانا ماهراً خبر البحر وعرف مسالكه ومجاريه، وهو في الحقيقة لم يكن قد عمل في هذا المجال، ولكن المهتم والشغوف بأمر قد يتقنه أفضل من المختص فيه كما هو معلوم. وهو وإن سافر على السفن الشراعية كراكب - إلا أنه كان صاحب لسان سؤول وقلب عقول، يعي كل ما يلقي عليه ويسأل عن كل ما يعزب عن علمه ويستفيد من كل ذي علم وإن صغره في السن والخبرة، حتى صار مرجعاً للباحثين في العلوم البحرية والفلكية والتاريخية.

### الرفيق النافع في عيون الباحثين العرب والغرب:

لأق صدور كتاب الرفيق النافع في شرح منظومتي الملاح باطايح رواجاً واسعاً في الأوساط العلمية في حضرموت خصوصاً وعموم الوطن العربي، فهو أول دراسة علمية معاصرة فريدة في بابها تتحدث عن المرشدات البحرية لأحد ربانة جنوب الجزيرة العربية في القرن الثالث عشر الهجري لم يسبقه في دراسة مادتها أحد من الباحثين الحضارمة والعرب.

يقول عنه الأستاذ عبدالرحمن الملاحي: في عام 1972م \_ نشر الأستاذ المرحوم محمد عبدالقادر بامطرف كتاباً بعنوان \_ الرفيق النافع على دروب منظومتي الملاح باطايح \_ عرّف فيه الربان سعيد سالم باطايح لقارنه ، شارحاً مرشدتين حواهما الكتاب شرحاً وافياً. أثار صدور الكتاب انتباه كل المهتمين بالملاحة البحرية من باحثين محليين وأجانب، وفي مسقط رأسه بالتحديد تجدد الاهتمام بله التعلق بشخصيته العلمية البحرية اهتماماً قارب العشق ، فالكل من أبناء هذه المدينة \_ الحامي \_ يتحدثون عنه باعتزاز وفخر، وحتى قال قائلهم ( إذا كان أهل الخليج يفتخرون بالملاح ابن ماجد ، فإنه يحق لنا نحن أبناء الحامي أن نفتخر بالملاح باطايح ). (9)

ويقول عنه في دراسة أخرى منوهاً بأهمية ذلك الكتاب: من الباحثين اليمنيين الذين أسهموا في أغناء المكتبة العربية البحرية بأبحاثهم الأستاذ محمد عبدالقادر بامطرف، الذي نشر منظومتين إرشاديتين للملاح سعيد سالم باطايح من ملاحي القرن الثامن عشر الميلادي في كتاب عنوانه الرفيق النافع على دروب منظومتي الملاح باطايح. وتعود أهمية هذا الكتاب إلى أنه أول المباحث العربية عامة التي اهتمت بالتعريف بأحد الملاحين العرب الجنوبيين البارزين، وتزداد الدراسة أهمية أنها تحدثت عن معارف ملاح قدير، عاش في مرحلة من تاريخ الملاحة العربية يعتقد فيها انقطاع معارف ملاحيتها عن معارف سلفهم من ملاحي القرن السادس عشر وما وضعه الشيخان أحمد بن ماجد وسليمان المهري وبحثاه من علوم ونظريات مبتكرة، ولم يشر الأستاذ بامطرف ويبحث هذه الفترة وملاحم التحول في العلوم البحرية الطارئة، لم يشر بصورة مباشرة ولكنه وبتقديم هذا الملاح من خلال مرشداته الرائدة وما تحويه من اتجاهات دالة على قياس الدرجات وأجزائها فقد سلط بجهد الرائع الضوء على أول المداخل إلى الطريق الشائك نحو مقصد نقطة التحول الضائعة. (10)



ويقول عنه بدر الكسادي: الأستاذ بامطرف كاتب قدير ومعروف بخبراته وبحوثه التاريخية وأدبه الجم، ويعتبر في الصف الأول من أدباء الجنوب وله العديد من المؤلفات منها الرفيق النافع الذي تناول فيه منظومتي باطابع بعد أن قام بتدوينهما وشرحهما، وهو يعد وثيقة تاريخية تثبت ما تمتع به أهالي الحامي من خبرات تاريخية في فنون الملاحة البحرية. (11)

وقد قام الأستاذ بامطرف بإصدار كتابه المذكور في مطبعة السلام بمدينة عدن في شهر جمادي الثانية عام 1392م الموافق لشهر يوليو 1972م ثم طبعه للمرة الثانية عام 1977م في المكتبة الوطنية بـعدن. وقد طبع قبل أن يصدر الأستاذ الباحث في التراث البحري حسن صالح شهاب (1931-2012م) كتابه "أضواء على تاريخ اليمن البحري" بخمس سنوات، وقد جعله مرجعا له، كما جعله أيضا من مصادر كتابه الأخير المسمى "المعجم المفصل في مصطلحات الملاحة العربية القديمة والحديثة في المحيط الهندي" الصادر في الكويت 2010م، وسمعه يثني عليه وعلى مؤلفه ومما قاله عنه أنه كتاب ممتاز في دراسة الملاحة البحرية في جنوب الجزيرة العربية.

أما الباحثون الغربيون فقد استهوتهم مادة الرفيق النافع ولعل من أبرزهم الدكتور روبرت سارجنت صديق الأستاذ بامطرف حيث كانا يعملان معا في الاستشارية البريطانية، ثم عمل أستاذا للثقافة العربية في جامعة كامبردج ببريطانيا، وقد كان مهتما بالتاريخ والتراث الحضري ومتابعا لصديقه بامطرف عندما كان يقوم بتجميع مادة الكتاب ولما انتهى منه عرض عليه أن يقدمه إلى مركز أبحاث الشرق الأوسط بجامعة كامبردج لطباعته وأن يترجمه باللغة الانجليزية ويصدر باللغتين العربية والانجليزية باسميهما ولكن - كما يقول الأستاذ بامطرف نفسه - لم يتم شيء في هذا المجال.

ولكن الأستاذ بامطرف رحمه الله لم يبخل على صديقه المذكور من الاستفادة بمنظومتي باطابع وشرحه المذكور عليها، فقد كان يطلعه عليه بين حين وآخر، ولما عزم على المشاركة في المؤتمر البحري الذي عقد في روما عام 1965م، جعله مرجعا أساسيا له، وقد كانت بعض الرباعيات من منظومتي باطابع مثار إعجاب المهتمين بالتراث الإنساني في ذلك المؤتمر البحري. (12)

يحدثنا عن تلك المشاركة بدر الكسادي بقوله: كانت السفينة الشراعية الحضرية مدار بحث شيق في الدراسة التي تقدم بها البرفسور الدكتور سرجنت الانجليزي في مؤتمر روما، عندما عرض شرح منظومتي الملاح الحضري الشهير سعيد سالم باطابع الذي أنجبته قرية الحامي، وقد حازت المنظومتان الإعجاب في المعالم البحرية والتوجيه المتقن. والفضل كل الفضل في إبراز هاتين المنظومتين في المؤتمرات البحرية العالمية يرجع إلى الأستاذ بامطرف الذي قام هو بترجمتها من اللغة العربية إلى اللغة الانجليزية. (13)

وقد قام الدكتور سارجنت المذكور بكتابة دراسة مقارنة بين نص بامطرف الذي أورده في الرفيق النافع وبين نص مخطوطة تحصل عليها في ميناء الحامي عند زيارته له عام 1964م زوده بها النوخدة عوض مبارك



بقرف، وقد كتب تلك الدراسة عام 1982م تحت عنوان ( من حضرموت إلى زنجبار قصيدة مرشد السفينة النوخة سعيد باطايع "الحامي" ) قدمها لجامعة كامبردج بلندن قال فيها:

"زودت بهذه النصوص من قبل صديقي الشيخ محمد عبدالقادر بامطرف، ثم تمكنت فيما بعد في طلب المشورة والاستعانة بنص أفضل مع عوض مبارك بقرف من أهل الحامي حيث ناقشت وعرضت النص مع العديد من النواخذة أخيراً في مدينة المكلا في منزل بامطرف ثم التعليق وأخذ الآراء على القصائد من قبل النواخذة مثل كرامة بن مبارك باحميش من سيحوت والنوخة عبدالله بن ناصر بن الأسد من حصوين، والشيخ علي جابر مسؤول في ميناء المكلا والشيخ علي بن أبوبكر بامعبيد والشيخ عمر عبدالله الكسادي، والنوخة سالم عوض الشقري من الديس الشرقية.

وبالتالي قام بامطرف بإجراء بعض الاستفسارات الإضافية في الحامي وتم نشر القصيدتين كـ(دراسة في التراث اليمني) في عام 1977م. بالرغم من الادعاء بأنها محلية إلا أنه غير مناسب إلى حد ما، فقصيدة باطايع في الحقيقة تعود أو تنتمي إلى أصل شائع من التراث البحري للخليج الفارسي وعمان وأماكن أخرى". (14) وبقي سارجنت يرسل صديقه بامطرف وهو ببريطانيا في كل ما يستجد له من أمور بحثية ومنها تلك الرسالة التي قدم له فيها مجموعة من الأسئلة عن العادات والتقاليد البحرية لدى أرباب السفن الشراعية في جنوب الجزيرة العربية، مثل السنجرة وتحية الموانئ وعمل الدلال في الميناء وتقسيم ريع السفينة وعدد طاقمها ومسؤولياتهم وكيفية استئجارهم وقانون الجروح والغرق ورمي المال في البحر وغيرها من العادات المتبعة، وهي مطبوعة بالرونو في 9 صفحات، كتبت عليها تعليقات بخط بامطرف وكتب في رأس أول صفحة منها ما يلي: "هذه إجابات على أسئلة قدمها لي الدكتور روبرت سارجنت في إحدى رسائله إلي، وقد استقيت مادة الإجابات من عدد من الملاحين البحرين الحضارمة الموثوق به. ورسالة الدكتور سارجنت موجودة عندي وهي باللغة الانجليزية".

وفي مطلع التسعينات الميلادية لفت كتاب الرفيق النافع ومأواه من مرشحات بحرية لباطايع انتباه باحث فرنسي يدعي "ميشيل نيتوه" متخصص في اللهجات والصوتيات فقدم من خلاله دراسة علمية لنيل شهادة الدراسات المعمقة ما فوق الماجستير في اللهجات العربية، قدمها إلى جامعة اكس - ان - برفانس - مرسيليا - في شهر يونيو عام 1995م بعنوان (منظومتي الشعر الملاحية للربان اليمني سعيد سالم باطايع) استنتج فيها بأن باطايع كان من أبرز بحارة عصره، وأن منظومتيه الملاحيين رغم أنها تعود إلى بداية القرن التاسع عشر الميلادي إلا أن مضامينها وتقاليدها تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، كما أن هذه المنظومتين ضمت كل المعلومات اللازمة للبحار في الفلك والمواسم والرياح وغيرها. (15)

### بامطرف ودوره في تشجيع الدراسات البحرية الحضرمية:

كان الأستاذ بامطرف من المشجعين للباحثين والمهتمين للكتابة عن تراث حضرموت البحري والشعبي، فلم يبخل على أحد في يوم ما بل يقدم لهم المراجع، بل ومؤلفاته المخطوطة، عن حسن ظن ونية، حتى أخذت



بعضها منه ولم تعاد إليه ونسبها ذلك الآخذ بل السارق لنفسه كما هو معروف في مؤلفه القيم "الهاجس والحيلة" الذي أخذه منه بحيلة المدعو حسن مجلي ولم يرجعه إليه ويقال أنه ضمنه رسالة ماجستير ونسبها له. (16)

في عام 1967م تعرض الأستاذ بامطرف للاعتقال في سجن المنورة بالمكلا من قبل الجبهة القومية التي أسقطت السلطنة القعيطية وتولت دفة الحكم، وكان معه جماعة من زملائه من أبرزهم المرحوم الشيخ بدر أحمد الكسادي نائب لواء المكلا، وقد ضمتهم غرفة واحدة، فكانا في كل ليلة يتذاكران في شؤون التراث الحضرمي الشعبي والبحري قتلا لوقت الفراغ، وكان بامطرف يقوم بتبليغ بعض مؤلفاته ومنها كتابه القيم الشهداء السبعة ضد الغزو البرتغالي على مدينة الشحر الذي فرغ منه بتاريخ 1969/9/25م.

ولما رأى الأستاذ بامطرف ما يختزنه زميله الكسادي في ذاكرته من معلومات قيمة عن البحر وعلومه وعادات وتقاليد البحارة وصناعة السفن الشراعية اقترح عليه وشجعه أن يكتب تلك المعلومات على ورق البياض وستكون مشروع كتاب يحمل اسمه كما يحدثنا بدر الكسادي نفسه بقوله:

"ما كنت أفكر يوما أنني سأكتب عن السفينة الشراعية وأجزائها الثابتة والمنقولة وعاداتها وعواندها في جنوب الجزيرة العربية شيئا، ولكن جرتني الأقدار إلى سجن المنورة بالمكلا كمتعقل في زنزانة رقم 11، ومن حسن حظي أن هذه الزنزانة ضمت الأستاذ المعروف محمد عبدالقادر بامطرف كمتعقل، وبحكم عيشتنا وسكاننا معا في هذه الزنزانة بقينا نتجاذب أطراف الحديث في ليالينا المظلمة وأحيانا يجرننا إلى شؤون البحر وعوانده وأساطيره ورحلات السفن الشراعية وأوقات رحلاتها الموسمية، وذات ليلة اقترح علي الأستاذ بامطرف تدوين ما هو مسجل بذاكرتي من معلومات عن شؤون البحر ولكني ترددت، وكان الأستاذ بامطرف يلح علي بشدة على التدوين والتأليف فوعدته بأن أنفذ فكرته إذا سمحت ظروف المعتقل القاسية وعندها اكتب كتابي هذا وأنا في داخل المعتقل بعد أن أصبحت بعض الظروف مواتية، وبات الحصول على أدوات الكتابة ميسورا، وإذا كان هناك من فضل لإبراز هذا الكتاب فهو يرجع إلى الأستاذ بامطرف الذي شجعني وساعدني على إبرازه، وليس لدي شيء أقوله له غير الشكر والوفاء". (17)

وقد جاء ذلك الكتاب مؤلفا جامعا يحمل عنوان اقترحه الأستاذ بامطرف (القاموس البحري) في مصطلحات الملاحة البحرية في جنوب الجزيرة العربية، وهو كتاب قيم فريد في بابهِ يرجع الفضل في جمعه إلى الأستاذ بامطرف رحمه الله، وقد حفظ به مؤلفه جانبا من التراث البحري لحضرموت كاد أن يندثر. وأهداه إلى بامطرف بقوله: "إلى الأستاذ محمد عبدالقادر عمر بامطرف أهدي كتابي هذا رمز شكر وعرفان".

وقدم له الأستاذ بامطرف بمقدمة ضافية تعد من أروع المقدمات التي كتبها جاء فيها:

"هذا الكتاب الذي تقدمه للقراء تحتاج إليه المكتبة العربية لسد ثغرة في ميدان البحوث الأكاديمية التي تقدمته في صناعة الملاحة البحرية التي اشتهر بها جنوبنا اليمني، وهي صناعة عفا عليها الزمن أو كاد، وذلك لعدم قدرتها على الصمود والمنافسة أمام السفن التجارية..

والكتاب الذي أسماه مؤلفه "القاموس البحري"، تناول السفينة الشراعية بالتشريح فأخذها مادة خاما وسار معها منذ وضع أول قطعة خشبية في بنائها حتى استوت سفينة كاملة بأجزائها الثابتة والمنقولة، والعلاقات التي كانت قائمة حينذاك بين البحار والقبطان ومالك السفينة والتاجر والمسافر تحت ظروف متنوعة، كما شرح



العوائد والتقاليد والقوانين التي تحكمت في جوانب مهمة من الملاحة البحرية قديما وحديثا ، كما ذكر الأساطير والمعتقدات التي خيمت على رجال البحر وذويهم.. .

والمؤلف لم يكن دخيلا على هذه الصناعة فهو أولا من أهالي قرية الحامي وهذا الانتساب وحده يكفي أن يجعل كلمته مسموعة في شؤون السفن الشراعية، تلك القرية العريقة ذات التاريخ الملاحي الغني بالخبرة والدراية، وعرفت منذ فجر التاريخ بكونها الرافد الأساسي لميناء الشحر تمدها بالبحارة الأقوياء المغامرين حتى استحق أبنائها أن يطلق عليهم من بين الحضارمة وصف (أبناء التربة الطيبة الملتصقين بها). وينتسب إلى أسرة عريقة من أسر الحامي عرف رجالها بشهرتهم الملاحية قبل أن يعرفوا بأية شهرة أخرى .. ولم يقعد منهم على دست الحكم إلا الشيخ الذي لم يعد في مقدوره مصارعة الموج .

ومما يتصف به القاموس البحري أنه جديد في موضوعه .. وقد وضعه مؤلفه من الذاكرة وتلك ظاهرة جديرة بالإعجاب. وقد كنت رقيقا له طوال الفترة بين 67/9/27 و 1969/12/8م، نقوم بمناقشة مادة الكتاب إلى ساعة متأخرة من الليل، ثم يقوم المؤلف بتدوين ملاحظاته في الصباح التالي". (18)

وقد وقفت على مسودات القاموس البحري لمؤلفه المرحوم بدر الكسادي في مكتبة د. عادل الكسادي وجدها ضمن أوراق المؤلف، مكتوبة بقلم الرصاص وعليها تصحيحات وتعديلات الأستاذ بامطرف بالقلم الأحمر.

وبعد أن أهدى الكسادي مؤلفه إلى بامطرف لأنهاحق به منه على حد قوله، بقي الكتاب في مكتبة بامطرف ولم يتمكن من طباعته للظروف السياسية آنذاك، ولكنه نقل عنه في كتابه الرفيق النافع عند طباعته عام 1972م، حتى آذن الله له بالظهور لأول مرة بمراجعة أستاذنا الباحث حسن صالح شهاب، وصدر عن المجمع الثقافي بأبوظبي بالإمارات العربية المتحدة سنة 2004م، ثم طبع للمرة الثانية عام 2009م من غير زيادة ولا نقصان سوى اختلاف الصفحات فقط، عن نفس المجمع الذي بدل اسمه هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ثم جددت طباعته للمرة الثالثة فينفس المجمع الذي حمل اسم هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة عام 2012م.

وبعد أن انتهى بدر الكسادي من تأليف كتابه القاموس البحري، اقترح عليه زميله بامطرف أن يؤلف كتابا عن تاريخ الحامي ودور أبنائها في الملاحة البحرية، لأنه من أبنائها وأعرف منه بأخبارهم وأصحاب مكة أدرى بشعابها، كما يقول المثل، ووضع تحت تصرفه مؤلفاته المخطوطة التي بيضاها ومنها: الشهداء السبعة، والهجرة اليمنية، والرفيق النافع، وشخصيات لا تنسى، فقام بكتابة موضوعات الكتاب ومواضيعه الأولى مع المقدمة تحت إشراف بامطرف في السجن ثم كتب باقيه عندما خرج من السجن عام 1971م، ولكنه لم تمض عليه أشهر من إطلاق سراحه حتى اعتقل مرة أخرى في منتصف عام 1972م عندما عصفت رياح الحزب الاشتراكي الماركسي بالقادة والعلماء فسجن من سجن وسحل من سحل وعذب من عذب، وكيلت حوله الاتهامات الباطلة مع زميله القائد صالح بن سميدع وتم إعدامهما عام 1973م، ولولا ذلك الحكم الجائر الذي لحق بالمرحوم بدر الكسادي لأبرز لنا من مكنونات ذاكرته الشيء الكثير من المعلومات التاريخية التي كتب عناوينها ولم يستطع الكتابة فيها رحمه الله تعالى.



وقد طبع ذلك الكتاب مؤخرا بتحقيقنا على مسودته الوحيدة في هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة 2012م تحت عنوان (أبطال منسيون من ربابنة الملاحة البحرية العربية) بعد أن قمنا بإعادة صياغته والتعليق على مواضع منه وترجمة الإعلام الواردة بآخره، وقد تضمن الفصل الأول نبذة عن ميناء الحامي موطن أولئك الأبطال المنسيون، وتراجع لشخصيات بارزة في الملاحة كالملاح باطايع والريان عوض أحمد بن عروة وعمر عبيد باصالح ومحمد عوض عبيد وعمر عبيد باصالح ومحمد عبدالله باعباد، بالإضافة إلى منظومتي باطايع وشرحهما. وتضمن الفصل الثاني الحوادث البرتغالية على حضرموت عموما والحامي على وجه الخصوص، ونبذة عن أسطول الحامي التجاري منذ القرن الثاني عشر الهجري، ووصف رحلة قام بها المؤلف وهي مغامرة بحرة من ميناء أيل بالصومال إلى ميناء الحامي عام 1931م، ثم أشاد بدور أهل الحامي في الملاحة عبر التاريخ وذكر الأسر التي امتنتها.

فكتابا بدر الكسادي (القاموس والأبطال) يعتبران من حسنات الأستاذ بامطرف المتعددة والتي تدرج ضمن دوره الرائد في دراسة تراث حضرموت الملاحي البحري.

ومما يعود فيه الفضل أيضا إلى الأستاذ بامطرف تشجيعه ومباركته للأستاذ الباحث عبدالرحمن عبدالكريم الملاحي (1933-2013م) في دراسة معارف ربابنة حضرموت الملاحية والفلكية خصوصا وملاحي جنوب الجزيرة العربية على وجه العموم، وقدم له بعض المخطوطات البحرية التي كانت بحوزته للاستفادة منها في أبحاثه ومنها مرشدات ومدونات جده (جد أبيه) الربان المعلم عوض بن سعد بامعبيد من مشاهير ربابنة الشحر توفى عام 1308هـ (1891)، وهي تتحدث عن يوميات رحلاته البحرية من ميناء الشحر إلى مينائي بومباي وكاليكوت بالهند لست سنوات من عام 1884-1889م.<sup>(19)</sup> وكان الأستاذ الملاحي في كل زيارة بحثية يقوم بها لأحدى الموانئ الحضرمية أوالمهرية يتجه بعد عودته مباشرة إلى بيت الأستاذ بامطرف ويعرض عليه نتائج تلك الزيارة ومناقشته في بعضها، ومنها تلك الرحلة الميدانية التي قام بها في فبراير 1987م للموانئ والرؤوس البحرية في المهرة ولما جاء ناقشه عن تسمية رأس فرتك وهل هو نفس رأس سياجورس كما ذكره ووصفه صاحب كتاب الطواف حول البحر الاريثيري، وكما هو مبين في خريطة بطليموس الروماني في كتابه المجسطي، وكان يرى الأستاذ بامطرف أنه لا يوجد ارتباطا بين اللفظتين فرتك وسياجورس ويوافقه على ذلك الملاحي الذي قام بزيارة الرأسين، وتبين له خطأ ذلك وصحة ما ذهب إليه، ويعتقد أن من نقل خريطة بطليموس، وضع اسم سياجورس، ويطلق عليه أهل المهرة سيجور، على رأس فرتك فتناقله من بعده واعتبروه حقيقة ثابتة.<sup>(20)</sup>

#### خاتمة:

إن جهود الأستاذ بامطرف في حفظ التراث الحضرمي الشعبي عموما والبحري على وجه الخصوص، تعتبر جهود جبارة قام بها بجهد شخصي ودافع وطني للحفاظ على ذلك الموروث العظيم الذي تكتنزه حضرموت، والذي يعتبر واجب وطني على جميع أبنائها أن يحافظوا عليه ويعرفونه للأجيال وهو كما يقول



عنه: إن التعرف على تراثنا الحضاري أمر واجب من الناحيتين التاريخية والاجتماعية، ذلك إن مثل ذلك التعرف يولينا الدافع الأخلاقي على مجازاة طبيعة العصر من حيث ملامحه التقدمية بالثبات والصبر والمثابرة نفسها التي واكب بها أسلافنا معالم التقدم في أعصرهم السابقة . لقد واكب أسلافنا عصرهم بروح المغامرة والشجاعة ولم يكونوا متهورين أو مندفعين انفعاليا، كانوا يقدرّون للعناصر الطبيعية قوتها ودقة حسابها ، وكانوا في الوقت نفسه يعملون على ما يمكنهم من استخدام تلك القوة وتلك الدقة الحسابية لصالحهم ، ومن أجل ذلك ركبوا أمواج الرياح الموسمية إلى البصرة وعاشوا مع البروج الشمسية في هدنة مستديمة". (21)

وللأستاذ بامطرف أسلوبه الخاص في مقابلة النصوص وتحقيقها وغرلة الرواية الشفهية آذابها بعين الاعتبار ويقول عن ذلك: "التدوين التاريخي يتجدد، بالضرورة، بالاستدراك والتهديب والمراجعة في منطلقه نحو الكمال .. ويتحقق ذلك التجديد بتسليط الأضواء على الحقيقة التاريخية المطمورة بالعثور على الوثائق التاريخية الصحيحة وفحصها، والتوثق، بقدر المستطاع، من أصالتها، وبالتثبت من صحة الرواية المحلية المستفيضة". (22)

وهو كما يقول عنه زميلها أستاذنا الملاحى: "من الكتاب القلائل المعاصرين المستجابين لتطورات الفكر الأوربي المعاصر، أسلوبا ونهجاً، بل انه من أفاذ الكتاب اليمينين الذين ينهجون نهج التحقيق والتحليل في الكتابة التاريخية، فلم يكن من أولئك الذي يطلقون الخبر على عواهنه، ولا يقبل تلقي الخبر أيضا بشوائبه، فيقف عند كل مقولة ومعلومية يتفحصها ويدقق فيها حتى يقتنع بها .. وقد كان شعلّة أضاءت لجيله طريق البحث عن خبايا التاريخ وخرائنه المدفونة". (23)

هذا هو الأستاذ بامطرف قدم خدمةً جليلةً لامته بإحياء تراثنا الحضاري البحري والشعبي، وخير شاهد على ما ذكرنا مؤلفاته العلمية التي تبرزه قامة علمية أديب ومؤرخ عربي قدير استحق بكل جدارة أن يمنحه اتحاد المؤرخين العربوسام المؤرخ العربي في يناير 1992م، بعد وفاته بثلاث سنوات وست أشهر. مع أنه كان في حياته ينفي عنشخصه، بتواضع، صفة الكاتب المؤرخ ويرى نفسه أنه باحث تاريخي يسعى لإثبات الحقائق بما يعتقد من صحة القرائن التي يكتشفها خلال بحثه.. (24) وهكذا هم الحضارمة في التواضع يضعون أنفسهم في مؤخرة القائمة وهم في الحقيقة على رأسها بأديبهم وعلمهم، ومآثرهم وإبداعاتهم الخالدة، حتى أثنى عليهم الغرب قبل العرب قديما وحديثا بما قدموه للإنسانية من خدمات جليلة في المجالات العلمية والدعوية والخيرية في وطنهم ومهاجرهم المتعددة.

رحم الله الأستاذ بامطرف فهو حاضر معنا من خلال مؤلفاته العلمية الرائدة في التاريخ والأدب والتراث الحضرمي، ومحاضراته القيمة التي كان يلقيها في الأمسيات الأدبية والفعاليات الثقافية.

نرجو أن نكون قد وفقنا في توضيح ذلك الدور الرائد الذي اضطلع به الأستاذ المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف في خدمة ودراسة التراث الملاحى البحري لحضرموت .. والله ولي التوفيق.



يوم الخميس 1 يناير 2015م

الحامي - حضرموت

### الهوامش والمراجع:

- (1) مقدمة القاموس البحري ص 17-19، بدر الكسادي، المجمع الثقافي أبوظبي 2004م.
- (2) التراث وصناعة الشعر، ص8، مؤسسة الطباعة والنشر عدن.
- (3) الشهداء السبعة ص40-41، دار الحرية للطباعة، بغداد 1974م.
- (4) الرفيق النافع على دروب منظومتي الملاح باطايح ص24، مطبعة السلام، عدن 1972م.
- (5) المرجع السابق ص 25.
- (6) المرجع السابق ص 26.
- (7) الشهداء السبعة، مرجع سابق، ص 40.
- (8) أبطال منسيون من ربابة الملاحة البحرية العربية ص136، اعتنى به محمد علوي باهارون، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبوظبي 2012م.
- (9) الكشف عن جوانب من حياة الملاح باطايح ص10، 11، محمد علوي باهارون، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت 2012م.
- (10) حول الدراسات البحرية العربية، نشرة الساعية ص6، العدد (11) مايو 2005م، لجنة إحياء التراث البحري والشعبي بالحامي.
- (11) أبطال منسيون، نفس المرجع السابق.
- (12) الرفيق النافع، مرجع سابق، ص 96.
- (13) أبطال منسيون، مرجع سابق ص 20.
- (14) ميناء الحامي في عيون الباحثين والمؤرخين العرب والأجانب ص 71-72، محمد علوي باهارون، بحث غير منشور.
- (15) الكشف عن جوانب من حياة الملاح باطايح، مرجع سابق، ص 78، 79.
- (16) بامطرف والتراث الشعبي، عبدالله صالح حداد، مجلة سعاد ص 14، العدد الرابع سبتمبر 2008م، جمعية الشجر للثقافة والتراث.
- (17) القاموس البحري، مرجع سابق، ص 23-24.
- (18) المرجع السابق، ص 11-17.
- (19) الريان بامعبيد ويومييات الطريق، عبدالرحمن عبدالكريم الملاحي، مجلة آفاق التراث الشعبي ص 53-54، العدد الأول 2007م، اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين - حضرموت.
- (20) بامطرف ورحلة البحث عن الحقيقة التاريخية، عبدالرحمن الملاحي، مجلة سعاد ص 13، العدد الرابع سبتمبر 2008م، جمعية الشجر للثقافة والتراث.



- (21) مقدمة القاموس البحري، مرجع سابق، ص 20.
- (22) في سبيل الحكم ص 7، الطبعة الثانية، دار الهمداني، عدن 1983م.
- (23) بامطرف ورحلة البحث عن الحقيقة، مرجع سابق.
- (24) نفس المرجع السابق.